

انجازان في عام واحد

اذا زال العائق الأجنبي ظهر الشعب بوجهه الحقيقي

لم يكد يمضي عام واحد على جلاء المستعمر عن ارضنا^(١)، حتى كان الشعب العربي في هذا الجزء المتحرر من وطنه الأكبر قد قدم جملة براهين عملية قوية على أن الاستعمار، بما يخفق في الأمة من مواهب ويكبت من قوى وامكانيات ويشوه من أخلاق ويزيف من قيم، هو اكبر نقمة يمكن ان تحل بها، وان الاستقلال هو حقاً نعمة الله الكبرى.

ان ما حققه الشعب خلال هذا العام قد جاء رداً صارخاً عنيفاً على كذب المستعمرين الغاشمين الذين كانوا يفترون على شعبنا الافتراءات، فيصغرون من شأنه، ويطعنون في حيويته وكفاءته وخصائصه فلقد تطور الشعب بسرعة عجيبة هي من أبرز خصائص العرب، وبرهن بأجلى صورة على ان فيه استعداداً صادقاً اصيلاً، ليس لأن يلحق بركب الأمم الناهضة فحسب، بل لأن يكون لها في اقرب وقت، خير مثال للتحرر والتقدم.

لقد قام شعب سوريا العربي، خلال هذا العام، بعملين خطيرين يصح بأن يؤلفا معاً ثورة سياسية اجتماعية، وبأن يخلدا في تاريخ الأمة العربية فتذكرهما الأجيال الآتية كما يذكر الانكليز حادث «العهد الكبير» وكما يذكر الفرنسيون يوم سقوط الباستيل.

(١) جريدة «البعث»، العدد ١٦١.

اما العمل الأول، وهو القسم السلبي من تلك الثورة الخطيرة، فقد تم قبل ستة أشهر، حين أجمعت البلاد، بوعي عميق رائع، على مقاومة المحاولة الدكتاتورية التي قامت بها حكومة «الملاكات». فكانت تلك المقاومة السلبية أول ظفر للشعب بحريته الداخلية بعد ان كسب حريته الخارجية بأجلاء الأجنبي عن ارض الوطن. وهكذا اصبح الدستور، منذ ستة اشهر فقط، ملكاً حقيقياً للشعب، امتلكه امتلاكاً نهائياً كاملاً بعد ان ادى ثمنه على دفعتين: الاولى في نضاله ضد الاستعمار. والثانية في نضاله ضد الفئة الحاكمة المستغلة، تلميذة الاستعمار ووريثته.

واما القسم الثاني الايجابي لهذه الثورة، فهو العمل الذي تم اليوم بتحقيق الانتخاب على درجة واحدة، واذا جازت المفاضلة بين عمليين كل منهما جزء متمم للآخر، وكل منهما عظيم خالد، فلا شك ان الأخير منها هو الأجل في الشأن والأعظم في الأثر، وهو الذي يكمل الاول ويعطيه معناه الحي، ومدلوله العملي.

اذ لو لم ينل الشعب هذا الظفر الحاسم في معركة قانون الانتخاب، لبقى ظفره في معركة الملاكات والدستور ناقصاً اجوف، ولبقيت الحريات العامة، التي كسبها بنضاله العنيد المجيد شيئاً نظرياً سلبياً، لأن الحرية التي لايدعمها دخول الشعب في ميدان السياسة، وممارسته الصحيحة لحقه في انتخاب ممثليه، ليست سوى لغو وترف عقيم، واداة للهدم والتخريب، تتيح للشعب ان يتظلم، دون ان يجد سبيلاً الى ما يزيل الظلم عنه، وتسمح له بأن ينتقد ويعترض، بينما تحرم عليه ان يصلح ويبيّن. واخيراً لأن الحرية التي لاتتجسد في حكم شعبي صحيح، هي حرية واهية الاساس، مضعضعة البنيان، معرضة في كل لحظة للغدر والعدوان من قبل مجالس نيابية على شاكلة المجلس الحالي، تتشكل الأكثرية فيها من طبقة مناوئة للشعب، متآمرة عليه، غريبة عن روحه، عدوة لمصلحته.

لقد خطا الشعب خطوتين حاسمتين في طريق المستقبل العربي الحر الموحد الراقى. وأن لمن حقه ان ينظر الى هذا المستقبل نظرة ثقة وتفاؤل، كما ان من حق العرب في سائر اقطارهم ان ينظروا الى سوريا العربية نظرة امل ورجاء، فلقد برهن شعبها المناضل الواعي على أنه يقدر نعمة الاستقلال ومسؤوليته، ويعرف كيف يفيد من هذا

الاستقلال لبناء حكم شعبي عادل حر، يكون فيه للعرب قدوة ومعونة، فيرون فيه الصورة الصادقة للشعب العربي اذ يتخلص من شوائب الحكم الأجنبي ، ويجدون فيه المساعدة الصادقة الفعلية لهم في نضالهم من اجل الحرية والوحدة.

ميشيل عفلق

٣٠ نيسان ١٩٤٧